المحاضرة الأولى : علم المعاني وتراكيب الكلام : الإسناد وأحواله :

البلاغة العربية حسب جل علمائها تحتوي على العديد من الفروع والمحاور الأساسية التي لا نستطيع الاطلاع على هذا العلم بدونها ، ولا ننسى أن ننوه إلى الأهمية البالغة التي تكتسيها هذه الفروع الأساسية في تبيان الآليات الإجرائية للبلاغة في اللغة العربية وهذه الفروع هي كالآتي : علم المعاني ، علم البديع ، علم البيان ، وسنتطرق إليها بالتفسير والشرح اللازم .

1- **علم المعاني :** يعد هذا الفرع من أحد أهم الفروع البلاغية الثلاثة إضافة إلى البديع والبيان ، ويعود الفضل الشرح الدقيق لمسائله ومباحثه إلى العالم المعروف في البلاغة عبد القاهر الجرجاني ، والذي تمكن من الولوج لهذا العلم والتمكن من خباياه وأسسه فلم يدع للذين من بعده ما يضيفوا ولا للذين قبله إلى النقد والإضافة ، فحاول هذا الأخير أن يضفي عليها صبغة الدقة والفاعلية .

وغالبا ما عرفه الدارسين والعلماء بأنه : " علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق بها مقتضى الحال فتختلف صور الكلام لاختلاف الحال ، من الخبر والإنشاء ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والقصر ، والفصل والوصل ..... " 1

وفي هذا التعريف يبدو الحس التعليمي واضحا من خلال التركيز على الصواب والخطأ في مفهوم الإفادة أو المغزى من الخطاب الذي يرمي بطبيعة الحال إلى الوضوح والإبانة لمراعاة أحوال وظروف الجمهور المستمع .

ولا ننسى أن ننبه إلى أن علم المعاني يتعلق بالأمور اللفظية من الذكر والحذف ونحوهما ، ولا ننسى أن البيان يتعلق بالجانب المعنوي وعلم البديع يجمع بينهما أي (البيان والمعاني) ، كما عرفه البعض أنه : " علم يبحث فيه عن أحوال التراكيب العربية من حيث السكنات والمزايا بعد فهم المعاني الأصلية من علم النحو " 2 ، ويظهر جليا أنه من خلال هذا التعريف أن علم المعاني تابع لعلم النحو ومتعلقا به ويمكن القول أنه أحد فروعه ، لكن الحقيقة عكس ذلك ، فقد يمكن أن نعتبره فرعا منه من ناحية التركيب لكنه من جهة المعنى والقصد الخفي وباب إفادة مقتضى الحال ، ومن هذا خرج علم المعاني من القيد الذي كان فيه واستقل بذاته

ووجد نفسه له مباحث وأبواب وأهداف التي فصل فيه القول عبد القاهر الجرجاني عندما تجاوز مفهوم الصواب والخطأ في التركيب ، كما لا ننسى تنبيه أنفسنا على أن علم المعاني يولي أهمية بالغة إلى مطابقة الكلام لحال ومقام السامع .

2- **الإسناد وأحواله :** قبل الولوج إلى عالم الكلمة والعبارة والحكم عليها إن كانت حسنة أو قبيحة في علم المعنى والحكم كذلك على حسن الكلام أو قبحه راجع في الأصل إلى ما مدى حسن تأليف عباراته والمحافظة على ارتباطها المعرفي واللغوي وأكيد المعنوي ، حتى وإن كنا في باب البلاغة فمن أجل الحصول على ملاحة الكلام يجب علينا عدم مخالفة القواعد النحوية وصناعتها حيث يقول في هذا الباب سيبويه في كتابه : " وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك : قد زيدا رأيت . وكي زيدا يأتيك " فألفاظ هذا الكلام يتبرأ بعضها من بعض ومرد ذلك أن العرف النحوي يمنع دخول قد وكي على الأسماء كما هو معروف ، فبكل ما وجد في كتابه جعله يصل إلى معنى النظم قبل البلاغيين حتى وإن لم يذكره باسمه مما جعل بعض البلاغيين المحدثين غلى القول : " فإذا كان عبد القاهر هو الذي ينسب إليه ابتكار نظرية النظم ، لأنه بسطها وفصلها وطبقها على أبواب جمة من البلاغة ، فإن سيبويه هو الذي أمسك المصباح بكلتا يديه وأنار الطريق أمام عبد القاهر وهداه إلى الغاية المنشودة . " 3

- **المسند والمسند إليه :** تتألف الجملة العربية من ركنين أساسيين هما المسند والمسند إليه ، وهما عمدتا الكلام ولا يمكن أن تتألف الجملة من دونهما . والإسناد من أهم وأول أبواب علم المعاني ودائما كما نوهنا سابقا أن سيبويه أول من تطرق إلى هذا الباب بقوله : " هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك : عبد الله أخوك ، وهذا أخوك ، ومثل ذلك : يذهب عبد الله فلابد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء " 4
- والمسند والسند لهم أمثلة عديدة كالمبتدأ والخبر أو كالفعل والفاعل وهكذا فلا تتكون الجملة العربية في الأساس بدونهما فالفعل يحتاج إلى الفاعل والعكس كذلك ، والخبر

يحتاج إلى مبتدأ ، كل هذه القواعد النحوية تحتاج إليها البلاغة لتفيد المتكلم وتمنحه بلاغة الحديث ومفهومية المعنى ، فبطبيعة الحال بحسب كل ما سبق ذكره من شرح حول علم المعنى وأصوله أبوابه ودوره في تكوين فصاحة البلاغة ، بطبيعة الحال لا نستطيع أن نقر بأن كلاما ما فصيحا أو مليحا أو بليغا بدون هذه الأركان الأساسية في الجملة العربية ولا نستطيع الاستغناء عنها .

- **الهوامش :**

1- حنفي ناصف وآخرون : شرح دروس البلاغة ، دار ابن الهيثم ، القاهرة ، 2008، ص 19 .

2- عبد المتعال الصعيدي : البلاغة العالية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط 2 ، 1991 ، ص 40 .

3- عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ، د ط ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1998 ، ص 114 .

4- سيبويه ، الكتاب ، تحقق عبد السلام هارون ، ط 3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988 ، ج 1 ، ص 23 .